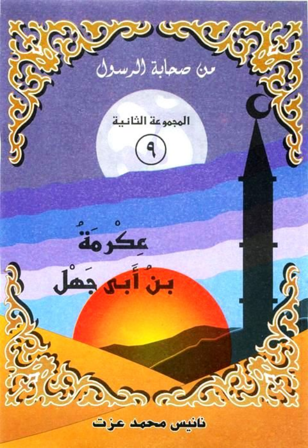

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٩
عِكْرِمَةُ
بنُ أَبِي جَهْلٍ
نانيس محمد عزت

عكرمة بن أبى جهل

فى يوم من أيَّام الصَّيفِ الحارَّة ، خرج أيمنُ وأبوه وإخوتُه يتنزَّهونَ فى إحدَى الحدائق ، لِيَنْعَموا بجوِّها الصَّحو ، وهوائها المُنعِش العَليل .

فبعدَ أن تَعِبوا من الجَرى واللَّعب ، جَلسوا لِينالوا قِسْطاً من الرَّاحة ، ويَتناولوا بَعضَ المَأكولات الخَفيفة . وعِندَها التَفت أيمنُ إلى والدِهِ وقال :

ــ عوَّدتنا يا أبى أن تقُصَّ علينا بين يوم وآخر قَصَصَ الصَّحابَةِ الأَوائل ، ومواقِفِهم العَظيمَةِ الَّتى نُعجَبُ بها . فهل نطمع أن تَقُصَّ علَينا الآنَ إحدَى هذه القِصَص ؟

فَوبلَت فكرةُ أيمنَ بتأييدٍ من أخيه مَحمود وأُختِه هدى وقالا : نعم يا أبى ، نرجو أن تقُصَّ علينا قِصَّةَ واحدٍ منَ الصَّحابَة .

قالَ والِدُهم : ما دامَ هذا مطلَبَكُم جَميعاً ، فاسْمَعوا الآنَ قِصَّةَ عِكرِمةَ بن أبى جَهْل .

استنكرَ مَحمودٌ ما قال والِدُه وقال : نُريدُ يا أبى أن نستمِعَ إلى قصَّةِ أحَدِ الصَّحابةِ الأفاضل ، وليسَ إلى قِصَّةِ أحَدِ أعوانِ الكُفرِ والعِصْيان .

فابتسمَ والِدُه وقال : ومن أخبرَكَ أنَّ عِكرمَةَ لم يكنْ من الصَّحابَةِ الأَفاضل ، ولم تكن له مَواقِفُ مَشهودَةٌ فى الإِسْلام ؟

فاستعجَّبَ الإخوةُ جَميعاً لقَولِ أبيهم ، وأيَّدَ أبوهُم كلامَهُ قال : نعم كانَ عِكرمَةُ من أكثرِ الكُفَّارِ عِنادًا وشَراسَةِ وضَراوَة ، وأشَدَّهم كَراهَةً لمحمَّد - صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلَّم - وللإِسْلام ، ولكِن انْظُروا يا أبنائى ماذا كانَ من أمرِه ، وكيفَ خَتَم حياتَه شَهيداً فى مَيدان

القِتال ، وكيفَ قدَّم روحَهُ راضِياً في سَبيل نُصرةِ الإسلام .

واستطاعَ الأبُ بذلك أن يَشُدَّ انْتِباهَ أبنائه إلى قِصَّةِ عِكرِمَةَ بن أبي جَهل ، ووجَدَهم مُشْتاقينَ لمعرفةِ حَقيقةِ أمرِه ، فراحَ يَحكي لهم قِصَّتَه ، قال :

ـ كان عِكرِمةُ من أكْرَمِ بُيوتِ مَكَّةَ وأعزِّها وأكثرِها مالا ، وكانَ من أشهرِ فُرسانِها ، وأبوهُ الحَكَمُ بنُ هِشامٍ أحدَ زُعَمائِها ، وكلِمَتُهُ مَسموعَةٌ في قَبائلِ العَرَب .

وعندَما بدأ مُحمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ـ يَدعو إلى نَبذِ عِبادَةِ الأصْنام ، وعِبادَةِ اللَّهِ الواحدِ الأحَد ، دَفعتِ الحَمِيَّةُ القَبليَّةُ والخَوفُ من فِقدانِ السُّلطَةِ والنُّفوذِ والغِنَى ، الحَكَمَ بنَ هِشامٍ أن يَكونَ أشدَّ أعْداءِ مُحمَّدٍ ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ـ فكانَ هو زَعيمَ الشِّركِ الأوَّل ، فعادَى الرَّسولَ أشَدَّ العِداء ، وأنزل

أشدَّ أنواعِ العـذابِ بأصْحابـه ، وكـانَ مـنَ الطَّبيعيِّ أن يتبعَهُ فى ذلِك وَلَدُهُ عِكرِمة ، فكان يَدَهُ الَّتى يَبطِشُ بهـا ، وسَوطَهُ الَّذى يَضربُ به ضِعافَ المُسلمين ، حتَّى أصبـحَ عِكرِمَةُ مثلَ أبيه مـن أشْهرِ صَناديدِ قُريش ، وأشَدِّهِم عَداوَةً للإِسْلام .

قالَ مَحمود : إنَّ ما قامَ به الحَكَمُ بنُ هِشامٍ لصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللّه ، تَحتاجُ حِكايتُه لساعاتٍ وساعات ، حتَّى إنَّ النَّبيَّ ـ صلَّى اللّـهُ عليـه وسلَّم ـ على الرُّغـمِ من حِلمِهِ وسَعَةِ صَدرِه ، لم يَمنَعْ أصْحابَهُ من إطْلاقِ اسمِ أبى جَهلٍ عَليه ، ومُنذُ تِلك اللَّحظةِ عُرِفَ الحكمُ بنُ هِشامٍ باسم « أبى جَهْل » .

قالَ والِدُه : صَدقتَ يا مَحمود ، ولكنَّ اللّـهَ سُبحانَه وتَعـالى ، أرادَ أن يلطُـفَ بعِبـادِه المُسْتَضْعَفين ، ويُريـحَ المُسلمينَ من ظُلمِهِ وجَبَروتِه ، فكانَتْ نِهايَتُهُ فى يَومِ بَدْر .

وقد عَرَفتُم بالطَّبع قِصَّةَ القافِلَةِ الَّتى أرادَ المُسلِمونَ أنْ يُغيروا علَيها ، وكيفَ استَطاعَ أبو سُفيانَ أن يَنجو بها ، وكيفَ خَرجتْ قُرَيشٌ فى جيشٍ كَبيرٍ لمُلاقاةِ مُحمَّد ــ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم ــ خَرَجتْ إليه بكلِّ زُعَمائها وصَناديدِ الكُفرِ بها . وكانَ الحَكَمُ بْنُ هِشامٍ وابنُهُ عِكرِمَة ، علَى رأسِ هَذا الجَيش . وإن كانَ أبو جَهلٍ يَرَى أنَّها مُجرَّدُ نُزهَةٍ وليست حَرباً ، فأقامَ الاحْتِفالات ، ونحرَ الإبل ، وسقى الخُمور .

وكانَ اللَّهُ ــ سُبحانَهُ وتَعالى ــ للحكَمِ بالمِرصاد ، فقُتِلَ بأيْدى الضُّعَفاءِ الَّذينَ طالَما أَلهَبَ ظُهورَهُم بسَوطه .

قالت هُدَى : وماذا عن عِكرِمة ؟ ماذا جَرَى له فى المَعْرَكة ؟

قالَ والِدُها : اسْتطاعَ عِكرِمَةُ أن يَنجُوَ بنفسِه ، ففرَّ بعد أن رأى مَصرعَ أبيهِ أمامَ عَينيْه ، مِمّا دَفعَهُ لأنْ يحتلَّ مكانَ أبيه ، ويَحفزَهُ لأنْ يَقتُلَ مَحمَّداً أنتِقاماً لَمقْتَلِه .

تعجَّب أيمنُ فقال : إنَّها بدايةٌ سيِّئةٌ لا تُبشِّرُ بقصَّةِ صَحابِيٍّ مُخلِص .

قالَ والِدُه : هذا جُزءٌ من كُلّ . فقدْ كانَ له الكَثيرُ مِنَ المَواقِفِ الّتي أظهرَ فيها أشدَّ العِداءِ والكُرهِ لرَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم ـ وللدِّينِ الإسْلاميّ .

ففي يَومِ أُحُد ، تولّى مَيسَرةَ جَيشِ المُشرِكين ، وها هو ذا يُشارِكُ في حِصارِ الخَندَق ، ولم يَكتَفِ بحِصارِ الخَندَقِ وإنَّما يُحاوِلُ اجْتيازَه هو وبَعضُ المُشرِكين ، ولكنَّ سُيوفَ المُسلِمينَ كانتْ لَهُم بالمِرصاد ، ولم يُنجِه إلاّ الفِرار .

ويوْمَ الفتح الأكبَر ، يْومَ فَتح مكّة ، لم يَخْضعَ عِكرمَةُ ويَرضَى بدُعاءِ أبى سُفيان : من دَخـلَ دارَهُ فهو آمِـن . بل فضَّلَ القِتالَ والدِّفاعَ عن دين أجْدادِه لآخِـرِ لحْظَـة ، فجمعَ فِتيانَهُ وجُنودَهُ من بَنى مَخْزوم لِملاقـاةِ المُسْلمين ، فتَصدَّى لهم سيفُ اللّهِ المَسلولُ خالدُ بنُ الوَليد ، ولقّنَهُم دَرساً عَظيماً ، فلم يَجدْ عِكرمةُ بدّاً من الفِرار من مَكّـة ، خاصَّةً بعدَ أنْ أعلَنَ الرّسول ــ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم ــ عَفوَهُ عن أهل مكّة ، مُستثنِيا منهُم جَماعَةً قَليلة ، على رَأسِهم عِكرمةُ بنُ أبى جَهْل ، فقـد أحـلَّ ــ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم ــ دَمَه . فتوجَّـه عِكرمـةُ إلىَ اليَمـن ، ولكنَّ الخَوفَ دفَعهُ إلىَ مُواصلَةِ الهِجرَةِ إلىَ الحَبَشَة .

استَقلَّ عِكرمةُ السَّفينةَ إلىَ الحَبَشَـة ، وهُنـالِك كـانتِ اللّحظَةُ الحاسِـمَةُ فـى حَياتـه ، لَحظَـةُ أنتِقالِـه مـن ظُلمَـةِ الشِّركِ إلى نورِ الإيمان .

اشتَّد انْتباهُ الأَولاد ، وتَساءَل أيْمن : ماذا حدَثَ يـا أَبى ؟ مـاذا يُمكـنُ أنْ يُغيِّرَ عقيـدَةَ شَخصٍ مثـلَ عِكرِمة ؟

قال والِـدُه : هَبَّت فى أَثْناءِ رحلَتِهِ إلىَ الحَبَشَـة ، ريحٌ عاصِفَةٌ شَديدَة ، كادَت تُوَدّى إلى غَرَقِ السَّفينَةِ بمنْ علَيها .

ولما نادَى الرُّبّان الحَبَشِيّ : أخلِصوا نيّاتِكُم لِلّـه ، فإنَّ آلِهَتَكُمْ لَن تُغْنِيَ عَنكُم شَيْئاً .

فكَّرَ عِكرِمَـةُ فى نَفْسِـه : لـن يُنجينى فى البحـر إلاَّ الإخْلاص ، ولن يُنجينى فى البرِّ غيرُه .

ورفَعَ يَديْهِ إلىَ السَّماء داعِيا : اللّهُمَّ لكَ علىَّ عَهدٌ إنْ أنتَ عافيتَنى مِمّا أنا فيه ، لآتِيَنَّ مُحَمَّداً حتـى أضـعَ يَـدى فى يَدِه ، ولأجدنَّهُ عَفُوًّا كَريما .

ولطفَ اللّهُ العفوُّ الكَرِيمُ بعكرمة ، وقبِلَ توبتَه ونجّاهُ من شِدَّتِهِ الّتى كانَ فيها ، ليَصِلَ إلى مكّةَ ويُعلِنَ إسْلامَه ، ويَبدأَ حَياةً جَدِيدَة .

قالتْ هُدَى : لقد أكْرَمَه اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالى مِنَ الغَرَق ، فإنْ كانَ قدْ ماتَ عِندَئذٍ لكانتْ عاقبتُه النّارَ لا شَكَّ .

قالَ والدُها : نجا عِكرِمَة ، ولكنّهُ بَقى مُتحيّراً . كيفَ يَصِلُ إلى رَسول اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسَلّم ـ وبأيِّ وَجهٍ يُقابِلُه بعدَ كلِّ ما كانَ مِنهُ من صَدٍّ عن دينه وعُداون له ولأَصْحابه ؟

وحدثَتِ المُفاجأة ، وقابَلَ زَوجَته ـ أمّ حَليمة ـ وكانت قد أَسلَمَت يَومَ الفَتح واستأمَنَتِ الرَّسول ـ صلىَّ اللّهُ عَليه وسَلّم ـ على زَوجها ، فأمّنَها عَليه ،

فخرجَتْ تَبحثُ عَنه حتّى إذا وَجدَتْهُ بادَرَتْهُ بقولِها : جِئتُكَ من عندِ أفضلِ النّاسِ وأكرمِهم ، وقد أمَّنكَ .

وفي مكّةَ هابَ عِكرِمَةُ لحظَةَ اللّقاء . وعندَ بابِ الرّسولِ لَقِيَ منَ العَفوِ والسَّماحَةِ والمحبَّة ، كلَّ ما لم يَخطُر على بالِه . فقدْ خَرجَ إليه ـ صلّىَ اللّهُ عَليه وسلّم ـ فعانَقَه وقال : مرْحَبا بالرّاكِبِ المُهاجِر .

وسألهُ عِكرمةُ عمّا يَجب عَليه أن يَفعَلَه ليُسلِم ، فقالَ ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ تقولُ : أشهدُ اللّهَ وأُشهِدُ من حَضَرَ أنّي مُسلِمٌ مُجاهِدٌ مُهاجِر .

عندئذ سأله ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ أن يطلب ما شاء وسوف يُعطاه . فكان طلبه العفوَ والسماحَ والتوبةَ والمغفرة .

قال محمود : إن لحظة إسلامه هي لحظةُ ميلادٍ جديدٍ له . لحظةُ موتِ مشركٍ شقيٍّ ضال ، وميلادِ مسلم تقيٍّ ورع .

ودعا ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ : اللهم اغفر له كـلَّ عداوةٍ عادانيها ، وكلَّ مسير سـار فيـه إلى موضـع يريـد إطفاءَ نورِك ، واغفر له ما نال من عِرضى فـى وجهـى ، أو وأنا غائبٌ عنه .

فتهلّل وجه عكرمة فقال :

ـ أما واللّه يـا رسـولَ اللّـه لا أدعُ نفقـةً أنفقتُها فـى الصدِّ عن سبيل اللّه ، إلا أنفقتُ ضعفَها فى سبيلِ اللّه ، ولا قتالاً قاتلتُه فـى الصَّـدِ عـن سـبيلِ اللّـه ، إلا قـاتلتُ ضعفَه فى سبيلِ اللّه .

وتَحوَّلَ عِكرمةُ من حالٍ إلى حـال ، مِنْ أكـبَرِ صَناديدِ الكُفّار وأشْرَسِهم عَداوَةً للإسْلام ، إلى مُسلِم عـابِدٍ زاهِـد ، يَحرِصُ دائماً على العِبادَةِ ومُداوَمَةِ قِراءَةِ كِتابِ اللّه .

ووَفَى عِكرِمَـةُ بوَعـدِه للرَّسـول ـــ صلّى اللّـهُ عَليـهِ وسَلّم ـ فكانَ سَـيفاً مـن السُّيوفِ الّتى شَـنّها الإسْلامُ

على المُنافِقينَ والكُفّار - فحَرَصَ على مُلاحَقَةِ المُنافِقين الذّينَ تَستَّروا بِرداءِ الإسْلام ، خَوفاً منَ القتل .

فما كان مِنهُم إلاّ أن يُغيظوهُ بقَولِهِم : هذا عِكرِمةُ ابنُ عدُوِّ اللّهِ أبي جَهل .

ويَغضَبُ عِكرِمةُ ويَشكوهُم للرّسول - صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم - فيجمَعُ الرّسولُ النّاسَ عِندَ البَيتِ الحَرام ، ويقولُ لهم : لا تَسُبّوا أباه ، فإنّ سبَّ المَيّتِ يُؤذي الحَيَّ ولا يَبلُغُ المَيّت . ولا تقولوا عِكرِمةَ بنَ أبي جَهل ، بل قولوا عِكرِمةَ بنَ عَمرو بن هِشام .

وحَرَصَ عِكرِمةُ على نَشرِ الإسْلامِ لِيُكفِّرَ عمّا كانَ مِنه من صَدٍّ عن سَبيلِه ، فما خاضَ المُسلمونَ مَعرَكَةً بعد إسْلامِه ، إلاّ وخاضَها مَعهُم ، ولا خَرَجوا في بَعثٍ إلاّ وكانَ مَعهُم .

وقد رَضِىَ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ـ عن عِكرِمةَ وعنْ إسْلامِه ، واسْتعملَهُ أخيراً على هَوازن .

قالتْ هُدى : صدقَ المَثلُ الّذى يَقول : يَخْلُقُ من ظَهرِ الفاسِدِ عالِما .

قال أبوها : بَلْ قولى من ظَهرِ الكافِرِ مُجاهِداً فى سَبيلِ اللّه .

فقد اشتركَ فى حُروبِ الرِّدَةِ فى عَهدِ أبى بَكرٍ الصِّديق ، واشْتركَ فى القَضاءِ على مُسيلِمَةَ الكَذّاب ، وقادَ جُيوشَ المُسلِمينَ فى عُمانَ حتى أعادَ للإسْلامِ مَجدَهُ وعِزَّته ، ومن عُمانَ إلى مُهرَة ، حتّى كتبَ اللّهُ على هَذهِ الفِتنَةِ أن تَنجَلِىَ وتُمْحَى .

وأظْهرَ عِكرمةُ فى يومِ اليَرْموكِ بُطولاتٍ لا يُصدِّقُها عقل ، فعِندما اشْتدَّ الكربُ بالمُسلِمينَ فى أحدِ المَواقِف ، نزلَ عنْ جَوادِه ، وكسَرَ غِمدَ سَيْفِه ، وأوغلَ فى

صُفوفِ الرّومِ مُقاتِلا . وعندَما حـاولَ خـالِدُ بـنُ الوَليـدِ قائدُ الجَيشِ أن يُرجِعَه ، قال : لقد قاتلتُ رسولَ اللّـه ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم ـ فى مَواطِنَ كَثيرَة ، وأَفِرُّ اليَـومَ منَ الرّوم ؟ إنَّ هذا لنْ يَكونَ أبَدا .

ثمَّ نادى : من يُبايعُ علَى الموت . فبايَعهُ عمُّهُ الحارِثُ بنُ هِشام ، وأربعُمائـةٍ مـن المُسلِمِينَ قـاتَلوا جَميعـاً مـعَ عِكرِمة ، أمامَ فُسطاطِ خالدِ بنِ الوَليد .

وكانتْ لَحَظاتٍ رَهيبـة ، أذهلـتْ الأعـداء مـن الـرّوم حينَ برزَ عِكرِمةُ يَحصدُ الرِّقابَ دونَ كَللٍ أو تَراجُع .

وانتهت المعركَةُ ونجدُهُ هُناك على الأرض ، شَهيداً بَينَ الشُّهداء والجَرحَى : نَجدُهُ هـو وابنَـهُ عَمـرَو بـنَ عكرِمَـةَ مُلَطَّخين فى دِمائِهما الطّاهرة ، أمَلاً فى اللّه أن يكـونَ قد غَفرَ له ما سَبقَ مِنه من صدٍّ عن سَبيلِه ، وما كانَ مِنه

من إساءةٍ إلى المُسلمين . أملاً أن يكونَ مَكانُهُ فى فَسيحِ جنّاتِهِ بين الشُّهداء والصّالحِين .

قالَ أيمن : شُكراً لك يا أبى : إنّها قصّةٌ شائقةٌ حَقّا ، ونَشكُرُكَ كَثيراً لأنّكَ أوضَحتَ لَنا موقِفَ عِكرِمَةَ من الإسلام ، فدائماً ما نَربط اسمَ أبى جَهل بالكُفْر ، ولم يَخطُرْ ببالِنا أبَداً أنَّ ابنَهُ عِكرِمةَ ماتَ شَهيداً فى سَبيلِ الإسْلام .

قالَ والِدُه : أنَّ الإسلامَ يا وَلَدى لا يأخذُ أحَداً بجريرة أبيه أو ابنه ، أو أيّاً ما كانَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِه .

فَكلُّ إنْسان يُحاسَبُ على عَمَلِه ، إنْ كانَ خَيْراً فخيرٌ بإذن اللّه ، وإن كانَ شَرّاً فشَرٌّ والعِياذُ باللّه . فعلىَ كُلِّ إنْسان أن يجِدَّ ويَجتَهِدَ لِيَصِلَ إلى بَرِّ الأمان ، ويَحظَى برضا اللّهِ ومَغفِرته بإذن اللّه .

والآن خُذوا حَظَّكم من اللّعبِ والتَّرَيُّض ، قبلَ أن تعودوا إلىَ المَنزل .